العولمة وإشكالية التربية في العالم العربي والإسلامي

أ. علي براجل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم علم النفس وعلوم التربية
جامعة الحاج لخضر - باتنة - الجزائر

تشكل القضية التربوية في العالم العربي والإسلامي قضية جوهرية ومعركة مصيرية تدخل في أعماق وجود الأمة وفي مصيرها، لاسيما في بداية هذا القرن الذي يشهد فيه العالم تغيرات عميقة وسريعة ؛ اجتاحت المجتمعات بسرعة مذهلة، دفعت أمامها وجرت وراءها مفاهيم جديدة أدخلت في قاموس حياة الأمم طوعا أو كرها، تحمل للبعض صورا حقيقية لمشروع الإنبعاث الحضاري الجديد وللبعض الأخر صورا تضليلية له.

ويأتي في مقدمة هذه المفاهيم مفهوم «العولمة» الذي استحوذ على اهتما م المجتمعات، واستولى على أفكار السياسيين والاقتصاديين والإعلاميين والتربويين بشكل يطرح كثيرا من التساؤلات، ويثير كثيرا من المخاوف لدى البعض ، ويعد بكثير من الآمال والطموحات لدى البعض الآخر. هكذا أصبح مفهوم «العولمة» يخضع لحركة المد والجزر، وتراوح بين القبول والرفض، بين الانفتاح والانغلاق، بين التفاعل والمقاومة. و بين كل هذا وذاك، يبقى الوضع يثير الحيرة والقلق في كيفية التعامل مع «العولمة» واتخاذ الموقف المناسب اتجاهها.

1. تدفق العولمة (طموح ومخاطر) :

إن الطموح إلى إقامة نظام من التعاون الدولي أكثر تماسكا ، والرغبة في إقامة مجتمع عالمي سياسي وثقافي وقيمي، استقطب أفكار السياسيين والمفكرين على مدى زمن بعيد (هالداي، 2002، 196). وقد سبق ظهور هذا الطموح ظهور النظام العالمي الحديث، أو ما يسمى (بالهيمنة التفاؤلية)، زيادة عن ظهور العولمة المعاصرة التي انتشرت في بداية القرن الواحد والعشرين،

أو «القرن الأمريكي» (كما يسميه البعض حاليا) بشكل مفرط في الخطاب السياسي والإقتصادي والإعلامي والثقافي والتربوي.

ولقد أصبحت كلمة «العولمة» محل اهتمام في كل نقاشات العلوم الإجتماعية والسياسية والإقتصادية. وحتى في النقاش العام في كل المجتمعات على اختلاف معتقداتها الدينية ومراكزها الحضارية، ومستوياتها الإقتصادية، يتجادل الناس حولها، يتألفون بها ويتخاصمون من أجلها، وكأنها ملك لهم جميعا يجب المحافظة عليها والدفاع عنه، أوكأنها تتصل بمصالحهم ومشاعرهم وعقائدهم اتصالا مباشرا لا يجوز التغاضي عنها، أو كأنها شر يجب محاربته ومقاومته والتخلص منه لأنه يتعارض مع مصالحهم ويهدد وجودهم ويدمر كيانهم.

إن مؤلفات كثيرة، ودراسات متنوعة برزت خلال السنوات الأخيرة، ودرست العولمة كظاهرة عالمية جديدة مثل : «صدام الحضارات» لهنتجتون، و«صعود وهبوط الإمبراطوريات» لبول كندي، و«نهاية التاريخ» لفوكاياما، و«فخ العولمة» لهانس .ب.مارتين وه.شومان، و«الكونية الجذرية لا العولمة المترددة» لفريد هاليداي. وهناك مؤلفات ومقالات تعد بالمئات، لاحت في فضاء القرن الواحد والعشرين، وجاءت ضمن السياق الحضاري الحديث لفهم العولمة الكوكبية أو الكونية الجذرية، باستكشاف حقائقها وفهم أوهامها ؛ إلا أن عدم دقة مفهومية ماذا يقصد بها، وما الذي يراد «تعولمه»، يبقى السمة الغالبة.

وتجدر الإشارة هنا، أنه قبل ظهور مصطلح العولمة ؛ عرفت الساحة الفكرية مفاهيم متصلة بها أو قريبة منها، فكانت بمثابة مؤشر من مؤشرات ظهورها. فقد تداول الناس قبلها مصطلح «التدويل»، ومصطلح «النظام الدولي الجديد»، وغيرها من المفاهيم التي لم تعمر طويلا، ولم يمتد مداها بعيدا حتى ظهر مفهوم «العولمة»، الذي ألقى بظلاله على المفاهيم السابقة، وأزاحها من بؤرة الإهتمامات الفكرية، ومن واقع الممارسات الفعلية.

إن الواقع يثبت أن مدلول المفاهيم يتغير بتغير الواقع الذي تعبر عنه، أو بتغير المصالح التي ترتبط بها ؛ فقد تكون هذه المفاهيم غامضة، تخفي خلفها معان ومدلولات كثيرة، وقد تكون واضحة تعبر عن مصالح محددة تخفي حقيقة الأشياء التي تدل عليها ؛ بحيث يكون هدفها تزييف صورة الواقع في الذهن وتضليل الوعي.

وبناء على هذا، تصبح الأسئلة التالية مشروعة : هل تحمل العولمة في أعماقها مشروع الإنبعاث الحضاري الجديد، تبشر به الإنسانية بالجنة الموعودة ؟، أم هي صورة تضليلية لتزييف حقيقة القهر والإستلاب ؟، وهل هي حركة تحريرية أم استعمارية ؟، وهل يقود «التعولم» إلى الإستقلالية والذاتية أم إلى الإنقياد والتبعية ؟، وهل ستساعد العولمة على تحضر الأمة العربية والإسلامية أم ستضاعف من تخلفها ؟

إن الإجابة المنطقية عن هذه الأسئلة، يذكرنا بها تاريخ صراع الحضارات والحروب القائمة بين الأمم عبر العصور المختلفة. واستنادا إلى هذا، فإن حقيقة العولمة، لا ينبغي أن يخفيها الواقع المضلل والمزيف على أنها زيادة التفاعل بين الحضارات وإلغاء الحواجز بين المجتمعات والدول، وزيادة التجانس وحجم التبادل التجاري بينها (هالداي، 2002، 108)، وتحقيق الرفاهية والرخاء لجميع الشعوب، وغيرها من المبادئ والشعارات البراقة ؛ إنها مشروع الهيمنة الإستعمارية الجديدة المعنون باسم «العولمة».

2. العولمة وعودة الحروب بين الأمم :

إن الدارس لمختلف المؤلفات التاريخية والبحوث الأكاديمية، والمتتبع للندوات الفكرية التي درست وحللت حقيقة العولمة بصورة موضوعية، قصد الوقوف على أبعادها وفهم أهدافها، يكشف الغموض الذي يكتنفها، والصور التضليلية التي تظهرها، والحقيقة الخفية التي تحملها في أعماقها. إن توقعات المحللين والمختصين تميل، في الألفية الجديدة، إلى التنبؤ بمستقبل إيجابي يقوم على الحوار الحضاري، والسلام العالمي، والإزدهار الاقتصادي، وثورة المعلوماتية واقتحام الفضاء بشكل أوسع وأسرع. وفي مقابل هذا، برز اتجاه معاكس يشير إلى احتمال زيادة الصراع الحضاري، ونشوب الحروب، وزيادة التوترات العالمية، وتفاقم الأزمات (شومان، ترجمة، عدنان، 238، 1998)، وارتفاع ظاهرة الفقر ، وزيادة انتشار الأمية، مما يعني أن «العولمة» حرب جديدة. إن التطور الذي عرفته مجالات كل من الإقتصاد، والعلم، والتربية، هو نتاج الصراع والتحديات بين الدول، أي أنه نتاج الحروب (صامويل، 1995، 21)، التي لم تختف أخطارها ومظاهرها وآثارها من أفق العالم ؛ حيث ما تلبث هذه الأخطار والمظاهر والآثار تتراجع نسبيا حتى تعاود الظهور من جديد، وبأشكال جديدة أشد خطورة على الإنسانية من ظاهرة الإستعمار ؛ وكأن كل قرن من الزمن، هدفه توريث الحروب للقرن المقبل ؛ لتبقى حركة الحروب في صورها المختلفة تقود حياة الشعوب.

من هنا، فإن العولمة القائمة على الصراع والإضطهاد باتت تفرّخ أشكالا جديدة من الحروب، أي أشكالا جديدة من الجرائم المقننة ضد الشعوب. فهي بهذا المفهوم لا تعدو أن تكون مجرد حركة قهرية استعمارية جديدة، أو دورة من دورات الصراع الحضاري والديني بين الشعوب ؛ هذا الصراع الحربي الذي انتقل في هذا العصر من صيغة الصراع بالحقد والكراهية، واستعمال الوسائل الحربية القاتلة، إلى صيغة القتل بالمحبة والمودة. وهي صيغة من صيغ القتل البطيء، بأسلوب حربي جديد، وهو أسلوب يفرض على الأمم المستضعفة أن تتولى قتل نفسها بنفسها بسلاح (التصدير الحضاري)، أي بالإنتاج العلمي والغزو الثقافي والفكري، وباستعارة النظم التربوية وقيم الحضارة الغربية، بحكم تفوقها الحضاري وتطورها

التكنولوجي وثرائها المادي، وباستعمال آليات ومبادئ مضللة، يقال ظلما إنها تعمل على توحيد الأمم وترقيتها تحت مضلة مبادئ الحضارة الإنسانية المشتركة.

وانطلاقا من العبر التاريخية، ومن الواقع المر الذي تمر به الأمة العربية والإسلامية في صراعها مع قوى اشر والكفر والطغيان، فهل يمكن اعتبار ما تحمله العولمة وما تدعو إليه وما تعد به الأمم الأخرى، حضارة إنسانية شاملة، تغدق على جميع المجتمعات، الرخاء الإقتصادي والثراء المالي والتطور العلمي والتكنولوجي كما يدعي منظروها ؟ أم يمكن اعتبارها دورة جديدة من دورات تاريخ الإستعمار، وعودة الحروب ضد الإسلام والمسلمين كما تبدو واقعيا، وكما يُتوقع لها مستقبلا؟ وهل تحمل مشروعا حضاريا إنسانيا، أم أنها مجرد سيناريو خيالي يُعرض بآليات وأدوات دقيقة وكأنه حقيقة ؟

إن واقع العالم العربي والإسلامي الآن يوحي أن ما تعد به «العولمة» المجتمعات العربية والإسلامية، ليس هو ما تظهره من أساليب المعاملات وتبادل الزيارات، وإبرام الإتفاقيات، ومنح القروض والمساعدات، وتمديد آجال تسديد الديون أو إلغائها في بعض الحالات، وغيرها من الأساليب والممارسات، بل هو ما تخفيه من حقيقة القهر والإستلاب الحضاري والتغريب الهوياني. هكذا يكون الوجه الحقيقي لها هو الوجه الخفي منها، وليس المظهر التمثيلي الإنخداعي لها.

وعليه، فإنه مهما اتفقت الآراء أو اختلفت حول ما تحمله «العولمة» من دلالات مرئية أو خفية، فهي لا تخرج عن كونها حضارة الهيمنة وثقافة القهر وإيديولوجية الصراع، وصيغة جديدة لاستعمار جديد ذي قطب واحد، سلاحه المال والتكنولوجيا الحديثة، هدفه استعباد الأمة العربية والإسلامية واستصغار وجودها. إن القوى الغربية، بهيمنتها الحضارية وقد أصبحت تنظر إلى الأمة العربية والإسلامية بنظرة الإستكبار والإستعلاء، وتتعامل معها بأسلوب الإحتقار والإستهزاء، وكأنها ليست كباقي الأمم الأخرى ، أو أنها أقل الأمم شأنا إنسانيا وأدناها وزنا حضاريا.

وانطلاقا من هذه الإشارات، ينبغي أن ننظر إلى «العولمة» على أنها فخ نصب لاصطياد المجتمعات المهزومة حضاريا والمقهورة ذاتيا، ولا تملك أية مقاومة إلا الدخول في المصيدة والخضوع لإرادة الصياد، واصطياد المجتمعات التي استيقظ فيها الوعي لإثبات وجودها، فأبدت إرادة المقاومة والدفاع عن كيانها وهويتها الحضارية.

إن ما تهدف إليه العولمة الغربية في سياق الهيمنة والقهر، هو استصغار وجود الأمم واحتقارها، وتصغير سعة العالم، واحتوائه، وتنميط الحياة فيه تنميطا غربيا، وتحويل فضاء الكرة الأرضية إلى جزيرة ذات جنسية موحدة (عقيدة وثقافة واقتصادا وعُملة وعلما ولغة)، تختفي

منها الحدود الجغرافية والمسافات الزما نية والمكانية، وتضمر فيها الخصائص والمقومات الذاتية المميزة للمجتمعات، لاسيما المجتمعات العربية والإسلامية منها، والتي أصبحت تمثل المحور المركزي في دائرة الصراع الحضاري العالمي المعاصر.

3. تجليات تأثير العولمة على التربية في المجتمعات العربية والإسلامية :

إن صورة العولمة المبنية على منطق القوة والهيمنة والقهر، والقائمة على فكرة «من ليس معي فهو ضدي، ومن هو ضدي فهو عدوي، ومن هو عدوي فيجب قهره»، تدرك أن احتواء المجتمعات وقهرها لا يتم إلا بهدم أسس بنائها، وأن الإسمنت المسلح لذلك البناء، يتمثل في النظام التربوي المتأصل فيها، والنابع من أصالتها والحامي لقيمها ؛ لذلك اتخذ (العولميون) من مجال التربية والتعليم مجالا رئيسيا لتسويق المعرفة «المعولمة» وترسيخ أفكارها، وتحقيق أهدافها. ويتجلى ذلك واقعيا فيما تمارسه الدول الغربية من أساليب الترغيب والترهيب على بعض الدول العربية والإسلامية لتغيير المناهج التربوية بحجة «التجديد والإصلاح» طبقا لرؤيتها واقتضاء لإرادتها ولمصالحها الخاصة، وليس اقتضاء لحاجات المجتمعات التي توجد فيها. وتتخذ في ذلك ذرائع ملتوية وحججا مضللة، تارة بإغراءات العولمة والحداثة ومجاراة التطور الحضاري، وتارة بمحاربة الأفكار المتطرفة المعادية للشعوب الأخرى، والتي لا تترك العالم يعيش في سلام ووئام. وليس المقصود من هذا التغيير والتجديد سوى تفريغ مضامين الأهداف التربوية، ومحتوى المناهج التعليمية من البعد القيمي الأصيل فيها، لأن ذلك يشكل مصدر خطر وإزعاج لمصالح الدول الغربية ولأهدافها في العالم العربي والإسلامي (الخليفي، 2003).

ولتحقيق هذا، يبذل الغرب جهودا كبيرة وينفق أموالا طائلة لتعميم الفكر «العولمي» في المجال التربوي، والترويج للقيم الحضارية الغربية على حساب القيم الدينية الإسلامية في المناهج التعليمية، لتضمن بذلك القوى المعادية للإسلام تقديم منتوج تعليمي غربي مصاغ في قوالب قيم الحضارة الغربية، ومسوّقا تحت تسمية (صناعة غربية عالمية راقية).

لقد سعى منظرو «العولمة» إلى صنع آليات خاصة من أجل تفعيل دور «العولمة» ثقافيا ومعرفيا، فبعد أن كان الدور مركزا على الجانب الإقتصادي والصناعي، تغير اتجاه المنعرج الحضاري «المعولم» إلى التركيبة المعرفية والإنتاج العلمي، وأصبحت التربية بجميع مؤسساتها ومستوياتها تمثل المجال المناسب الذي يراهن عليه «العولميو ن» على تحقيق الإستثمار الرابح والدائم في العالم العربي والإسلامي ؛ وهو تكوين الإنسان «اللامنتمي»، الفاقد لخصائصه الذاتية ولمقوماته الحضارية الأصيلة، ليصبح كالإنسان الآلي أو الإنسان المستنسخ بهندسة (التكنولوجيا الوراثية)، ينقاد ويقاد ولا يقود.

إن الصراع الحاد الذي افتتح به القرن الواحد والعشرين أبوابه، ليس صراعا جديدا بين الأمم، وليس صراعا اقتصاديا اقتضته دوافع الفقر والجوع، أو دوافع حب التملك والثراء، وليس صراعا بين قوميات وعرقيات بشرية تسكن مناطق جغرافية حارة أو باردة، متقاربة أو متباعدة، إنه صراع حضاري ديني (ادريس، 2003). إن التاريخ يروي لنا أن الحروب التي اندلعت بين المجتمعات، إنما كان سببها الأساسي في الغالب الأعم، اختلاف الديانات والرؤى والقيم والمعتقدات.

إن التصريحات السياسية التي راجت في الحرب العراقية الأخيرة (2003) على أن الحرب الدائرة في العراق (حرب صليبية) ليست ذات مغزى سياسي فقط كما أُولت وعُللت، بل إنها ذات مرجعية تاريخية دينية، ارتدت رداء الدين المسيحي، وركبت مراكب التطور التكنولوجي العصري.

إن الدراسات التي تناولت حضارات الأمم عبر العصور، تكاد تتفق على أن الحضارة مهما تعددت العناصر المكونة لها، فإن أهم عنصر فيها هو العنصر الثقافي، وأن أهم عنصر في الثقافة التي تكوّنها هو الدين ، وأن عنصر التفاعل بين الثقافة والدين هو جوهر التربية، وأن جوهر التربية المتفاعل مع عنصري الدين والثقافة هو ما تحمله من خصوصية تأصيل ذاتية الأمة والحفاظ عليها، وحمايتها من عوامل الإنجراف الحضاري المضاد.

وإذا كان عنصر الدين يعد مركبا جوهريا في النظام التربوي، فهو يعد أيضا محركا أساسيا للديناميكية الحضارية، بل عنصرا بيولوجيا في جسمها، وعليه فلا يمكن أن ينفصل عنها. ويبين مالك بن نبي أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة وبنائها من خلال صورة تخطيطية وضع لها مقاييس ومراحل، تحدد صعود الحضارة ونزولها، أو ميلادها وأفولها، وفيما يلي نموذج لهذه الخطاطة :

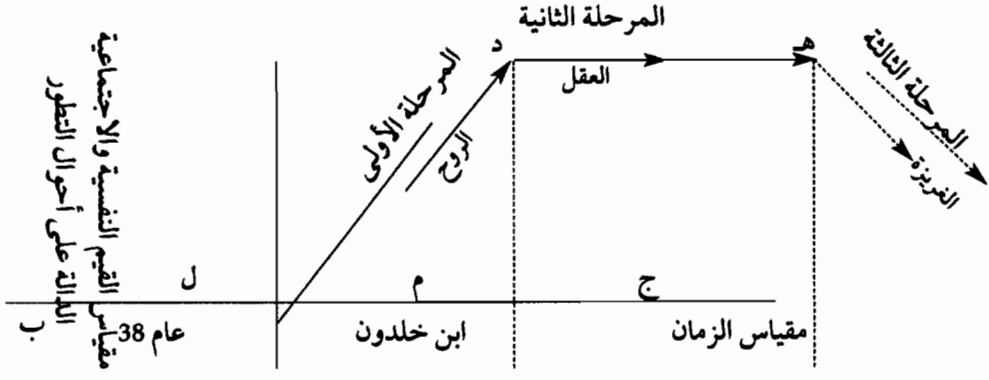

تمثل (المرحلة الأولى) مع تصاعد القيم النفسية والإجتماعية الدالة على أحوال التطور، دور الدين في الصعود الحضاري. فعندما ضعف دور الدين و أُقصي من الوظيفة الحضارية (المرحلة الأولى)، وتم الإعتماد على قوة العقل (المرحلة الثانية)، حدث للحضارة انتشار وتوسع أفقي، لأن دور العقل لم يكن كافيا للسيطرة على الغرائز التي تحررت من قيودها. وعندئذ، سلكت الحضارة منحنى النزول، والتي تعني مرحلة الأفول (المرحلة الثالثة) (بن نبي، 1969).

ومن القانون الحضاري السابق، يبرز دور الدين كمركب أساسي في البناء الحضاري. فإذا كان «العولميون» يوهمون الناس بأن الفكر الديني الإسلامي أصبح هاجسا مخيفا، يمثل العنصر المحرك للصراع بين الأمم، وإثارة العنف وتصدير (الإرهاب)، فذلك هو جوهر التضليل «العولمي»، وروح الصراع الديني. إن الدين الإسلامي يدعو إلى إقامة السلم في العالم ليعم البشرية كلها، وليعمل على إنهاء الخلافات بين الأمم، ويؤكد على إجراء الحوار بين الحضارات من أجل التفاعل، وليس من أجل الصراع والتصادم.

4) تأثير الفكر التربوي الغربي في تكوين نموذج الإنسان الحديث :

إن المتتبع للنظريات التربوية والنفسية والإجتماعية التي حاولت صياغة وتكوين الإنسان الحديث، يكشف التناقض القائم بين هذه النظريات حول تشكيل نموذج الإنسان الحديث. وقد انطلقت في صياغتها وتحليلاتها من منطلقات متباينة ومتناقضة، وكأن كل مفكر يريد تشكيل إنسان يعكس صورة عصره، ويعبر عن ظروف حضارته. وقد أرجعوا أصل الإنسان إلى أصول خاطئة، وكلفوه بوظائف تخالف وظيفته الحقيقية وفطرته السليمة. ونعني بذلك، تلك النظريات التي حرفت حقيقة خلق الإنسان، وحقيقة وجوده، ولم تهتم به إلا من بعض الجوانب والأبعاد، كالبعد الحيواني والبعد الغريزي الشهواني والبعد الطبيعي والبعد المادي (مذكور، 1986)، وغير ذلك من الأبعاد التي شكلت من الإنسان ذي الكينونة الواحدة، وحدات إنسانية مختلفة، كأنه قطع ميكانيكية يتم تركيبها بقوالب مختلفة لصناعة نماذج بشرية آلية متطورة. وهذا مايتناقض مع فطرة الإنسان ومع التكريم الذي خصه الله به ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ الإسراء : 70.

ونتيجة لما أحدثته تلك النظريات من تأثير، ولما لقيته من تأييد انعكس على الأهداف والغايات التربوية، ومحتويات المناهج الدراسية، حيث أعطت الأهمية الكبرى لمجال الرغبات والغرائز الشهوانية والقيم المادية أكثر من اهتمامها بمجال الوعي الإنساني، والقيم الروحية والأخلاقية، فصارت الغايات المادية والقيم الإقتصادية والشهوانية، المحاور الأساسية التي تركز عليها الأهداف التربوية، وتدور حولها الأنشطة التعليمية الحديثة. إن مثل هذا الإتجاه

ساعد على تقوية شأن العلوم الطبيعية والتكنولوجية، وإضعاف شأن العلوم الإنسانية والدينية، التي أصبحت أقل قيمة وفائدة بالنسبة للآباء والطلبة مقارنة بالعلوم التجريبية والتقنية.

ولقد كان من عواقب ذلك كله حدوث اضطراب في القيم الروحية والأخلاقية (مدني، 1989)، وتناقضات في الحياة الاجتماعية، التي تسببت في زيادة حدة المشاكل والصراعات، وإثارة الخلافات الاجتماعية والأسرية، وزعزعت أركان القيم الأخلاقية والمعتقدات الدينية التي راح ضحيتها الإنسان بسبب اضمحلال القيم الإنسانية في نفسه، أو بسبب استبدالها بالقيم الحيوانية التي غررت بحياته، وأخفقت في النهوض به. ويؤكد الكسيس كاريل النتائج المتناقضة للحضارة الحديثة، وانعكاساتها السلبية على الإنسان بقوله «إن الحضارة الحديثة تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا ؛ فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ؛ إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأهوائهم ، ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا» (كارال، ترجمة، شفيق، 1986).

إن الأهداف التربوية المبنية على الفلسفة المادية النفعية وتمجيد الغرائز والشهوات الحيوانية، وإن كانت قد حققت للإنسان ثراء ماديا كبيرا، وتفوقا حضاريا وتكنولوجيا راقيا، فإن ذلك لم يعد كافيا وقادرا على إعادة الإعتبار للإنسان كإنسان كما كونته هذه التربية، ولم يعد كافيا وقادرا على بعث الأمل والشعور بالسعادة والتعايش السلمي بين الشعوب كما تعد بذلك. ونتيجة لهذا، أصبح الإنسان، يعيش في ظل تأثير هذه القيم، حياة الشعوب البدائية المتسمة بالقسوة والهمجية والعدوانية، فصار الإنسان تحت شعار «احترام الإنسان» أو احترام حقوق الإنسان، يستسيغ القتل الطبيعي العمدي لأخيه الإنسان ؛ ومثل هذا التصرف يعد إفلاس الحضارة. إن احتقار العلوم الإنسانية والدينية وعدم الاهتمام بها في المناهج التربوية، كما حدث الآن، هو احتقار للإنسان ذاته ؛ وإن الاهتمام بالإنجازات المادية التي حققها الإنسان، وجعلها غايات أساسية في حياته، وتحقيق السعادة لنفسه، لم تجعل منه إنسانا إنسانيا، لأنه بقدر ما حقق من إنجازات مادية غزا بها الأرض والبحر والفضاء، بقدر ما ازداد توحشا وهمجية، فاقت في بعض الأحيان همجية ووحشية الإنسان في العصور البدائية.

إن الإنجازات المادية والتقنية التي انبهر بها الإنسان في هذا العصر، وإن كانت قد زادت في نعم ورخاء بعض المجتمعات، فإنها في المقابل قد زادت في بؤس وشقاء أغلب المجتمعات. إن هذه الإنجازات هي التي صبغت على قلب الإنسان صبغة الجشع والطمع، فأحيا ظاهرة القهر والإضطهاد والاستغلال، كما صبغت قلبه بصبغة الكره والحقد، فسمح لنفسه باحتراف مهنة الحرب والقتل بمختلف أنواع الأسلحة المحرمة دوليا والمنبوذة إنسانيا، وبلا أسباب شرعية أو قانونية، فلم يعد يلبي أي داع من دواعي إنسانيته الحقيقية.

لقد انخدعت المجتمعات العربية والإسلامية بمظاهر التقدم في المعرفة العلمية والقوة التكنولوجية الغربية، فلم تفكر مليًا في الخطر الذي يحدق بها من جراء تضاؤل القيم التي تعطيها للعناصر الروحية والأخلاقية في بناء شخصية الإنسان وبناء الحضارة، وأسلمت نفسها بنوع من الرضا للصور الخيالية التضليلية للحضارة الغربية، التي بدت لها كأنها حقيقة، وغررت بنفسها في استعارة القيم والمثل المضادة لها والمدمرة لكيانها .

إن الغلو في رفع شأن العلوم المادية والتقنية التي اعتمدت عليها الحضارة الغربية، أكسب الإنسان الشخصية «الفردانية» وروح العداوة والبغضاء، فجمد علاقاته مع غيره، وأصبح الإنسان يتعامل مع أخيه الإنسان بالقسوة والعنف والجفاف، وكأنه يتعامل مع الآلات الميكانيكية أو الكهروميكانيكية الجافة، الفاقدة للشعور بروح التعاون والتفاعل الإنساني .

هكذا تصبح النظم التربوية الخالية من القيم الروحية والأخلاقية، والمبنية على القيم المادية والغرائزية فقط ـ كما يريدها أنصار الفكر المادي والشهواني الحيواني ـ تعمل على تدمير الإنسان داخليا وقهره خارجيا، أي أنها تعمل على تكوين إنسان فاقد لوجوده ورافض لانتمائه، ناكر لحقيقة فطرته سواء بطريقة شعورية أو لاشعورية. ويصبح دور التربية المبنية على هذا المبدأ، الزج بالإنسان الذي تكونه في فخ القهر والانهزام، لأنها لا تقوم بتربيته بما ينمي شخصيته ويهذب سلوكه كإنسان، وإنما تقوم بترويضه وعلفه كحيوان، فتتولد لديه النزعة إلى الانهزام والشعور باليأس وفقدان الثقة في النفس. وبهذه القيم والمبادئ، مال الإنسان إلى تناسي علاقاته حتى مع أقرب الناس إليه، وسار في الطريق المؤدي إلى المحطة التي تنبذ أن تتوقف فيها القيم الإنسانية السامية، وأصبح كل إنسان يرى كل الآخرين، بمعيار الأوراق النقدية حسب قيمتها في أسواق البورصات العالمية، على أنهم مجرد أشكال أو آلات تنتسب إلى العالم المادي والتكنولوجي.

إن ما يهدف إليه الفكر التربوي «العولمي»، هو فرض نموذج تربوي قائم على الفكر الهيمني الإضطهادي، وهوعولمة العقل البشري وتوحيد نمط التفكير البشري، ليصبح مبرمجا برمجة تقنية آلية، يعمل بفكر الإنسان المستنسخ بالهندسة التكنولوجية الوراثية. ويصبح العالم كله منمطا تنميطا مشتركا، تكون له قيم ومعتقدات مشتركة، وعواطف ومشاعر وأحاسيس مشتركة، ولغة مشتركة، وتكون فيه التجارة مفتوحة ومتيسرة بين كل الدول، ويسود فيه نظام اقتصادي واحد، ونظام سياسي واحد، ونظام تربوي واحد، ومنهاج تعليمي موحد. وفي هذا السياق، يريد «العولميون» للعالم أن يتولى أمره حاكم واحد، يكون هو إلههم ومسير أمورهم، يصدر القرارات بإثابتهم أو عقابهم !

إذا كان من مصلحة البشرية «التعولم» الكلي لمجالات الحياة، فلماذا تُغزى المجتمعات وتستعمر وتقهر وتقتل كالحشرات الضارة، ليس باستعمال المبيدات والمواد السامة، بل بالإعتماد على المبادئ الإنسانية السامية، وباستخدام العلم والتكنولوجيا الذي هو ثمرة العقل البشري المتحضر.

إن واقع المجتمعات المغزوة والمقهورة، يكشف عن جوهر التعارض المنطقي بين الأهداف المثالية لما تدعو إليه «العولمة» كمشروع حضاري إنساني كما تزعم، والممارسات الحقيقية لها كما تبدو في الواقع. إن دوافع قهر مجتمع لمجتمع آخر تبدأ بالتضليل والتزييف للأهداف والدواعي الحقيقية المحركة للقهر، كما يدل على ذلك تاريخ ثورات البلاد العربية والإسلامية.

لقد أصبح الإنسان المقهور في هذا العصر يتبنى، بفعل تأثير المبدأ الإنساني والمظهر الحضاري والتطور التقني والإقتصادي، بوعي أو بلا وعي، قيم وثقافة القاهر (فيراري، ترجمة ننور عوض، 1980) ؛ وفي هذا تتأكد مقولة ابن خلدون لما قال «المغلوب مولع باتباع الغالب والإقتداء به في سائر أحواله» (ابن خلدون، 1982، ط، 2).

5) **معاداة التربية الإسلامية :**

شنت أمريكا، ومن دار في فلكها، حملة واسعة ضد الإسلام والمسلمين، بعد أحداث 2001/09/11. ولتحقيق مبتغاها استعطفت وضللت عقول البعض، فاستولت على مشاعرهم وعواطفهم، فأصبح ينظر إلى العالمين العربي والإسلامي على أنهما يشكلان خطرا على سلامة البشرية، وأنهما لا ينتجان من خلال مناهجهم التربوية الدينية، العقول البشرية المفكرة والمبدعة ؛ بل ينتجان الأسلحة البشرية المدمرة ، ويصدرانها للعالم بصيغة العنف والإرهاب الدولي.

وعلى الرغم من أن الإسلام، بتسامحه واعتداله وانتشاره المتزايد في أرجاء المعمورة، فهو يشكل في نظرها المقاومة العنيدة لمنع انتشار المبادئ الإنسانية المشتركة.

وليس بغريب أن يصل موقف هذه القوى إلى أمر بعض الدول العربية والإسلامية، بإلغاء تدريس مادة التربية الإسلامية وتخفيض عدد ساعاتها في مختلف المراحل والمستويات التعليمية، وتحديد المحاور التي تدرس فيها، والتي يجب أن تقتصر فقط على تدريس الفقه والحديث والعبادات الشخصية. ولقد تم هذا ويتم تحت غطاء مكافحة ظاهرة الاعتداء على الأمم الراقية ، ومكافحة الإرهاب والتطرف الديني في العالم، لتعيش البشرية في أمن واطمئنان. إن هذا الموقف هو في حقيقته عداء للدين الإسلامي وتشويه للحضارة العربية الإسلامية، وادعاء بأنها لا تتناسب مع متطلبات العصر وتطوراته، بهذا التوجه التضليلي تحاول

القوى المعادية للإسلام والمسلمين فرض أنماط تربوية جديدة أطلق عليها «تربية السلم والسلام في العالم». وتطالب بالتخلي عن تربية الحرب والإرهاب التي تسيطر على العقول العربية والإسلامية حسب زعمها.

إن تفريغ المناهج التربوية من البعد الديني، يعني تفريغ الأمة الإسلامية من أصالتها وتجريدها من انتمائها الذي يميزها عن غيرها من الأمم، فتفقد بذلك وجودها وقدرة الدفاع عن ذاتها. إن أعداء الإسلام يعرفون أن الأمة الإسلامية إذا فقدت عقيدتها فقدت وجودها، وإذا فقدت وجودها فقد ت روحها، وإذا فقد ت روحها أصبحت في عداد الأموات (مدني، 1989) فهل العولمة الغربية بمعاداتها ومحاربتها للعقيدة الإسلامية، وعدائها للمسلمين تريد لهم التحضر أم التخلف ؟

إن هذا الموقف ليس جديدا على المجتمعات العربية والإسلامية. إن التاريخ يشهد ويحتفظ في ذاكرته بأن الاستعمار مهما كان نوعه، وأينما كان موقعه المكاني والزماني، فهولا يكتفي بنهب ما في الأوطان من الخيرات والثروات، بل يعمل من أجل استعباد الإنسان وهدمه عقائديا وتدميره فكريا وقهره حضاريا ، وذلك من خلال المشاريع التربوية أو بالأصح «اللا تربوية» التي يفرضها طبقا لاستراتيجياته ومخططاته الاستلابية القهرية. لقد جعل الغرب الغالب التربية في البلاد العربية تنقلب على نفسها بإرادتها، وتنحرف عن أهدافها السامية، وتتخلى عن وظائفها الحقيقية بتضليل أبنائها. هكذا تتحول التربية من عامل لإيقاظ وعي الأمة والشعور بوجودها وفرض سيادتها إلى عامل للقهر والاحتقار، وتتحول المؤسسات التربوية من مؤسسات للبناء والتعمير إلى مؤسسات للهدم والتدمير، ومن وسائل إصلاح للمجتمع إلى وسائل إفساده، ومن أداة نمو وتطور إلى أداة تخلف وتقهقر، ومن أداة تحرر إلى أداة تبعية بمعناها الشامل.

6) أساليب تأثير الفكر العولمي على القضايا التربوية في البلاد العربية والإسلامية :

لقد حرصت القوى الغربية حرصا شديدا على مراقبة الأنظمة التربوية في البلاد العربية والإسلامية، وحاولت التأثير عليها والتحكم في سياساتها التربوية، لقد مس هذا الموقف الدول التي تعاني من ظاهرة التخلف والفقر، والتي وقعت تحت ضغط التبعية، وشروط المنظمات والهيئات والمؤسسات العالمية ذات الطابع التربوي والاقتصادي.

لقد أصبح اليوم واضحا أكثر من ذي قبل أن التدخل في استراتيجيات التربية، يعد من أولويات هذه الدول التي اعتمدت سياسة المساومة، فربطت تقديم المساعدات للدول المهزومة فكرا والمهزومة عقلا بمدى انصياعها وتطبيقها لما يملى عليها.

لقد أصبحت هذه الشبكة من المؤسسات والهيئات العالمية تسيطر على المجال التربوي والثقافي والاقتصادي والإعلامي في العالم.لذلك نراها تنفق أموالا طائلة لتمويل المشاريع التربوية وتتولى الإشراف على مراكز البحوث العلمية والإعلامية، ووضع استراتيجيات وخطط النظم التربوية، وإغراء الباحثين والدارسين وأساتذة الجامعات بالمكافآت المالية المعتبرة لاستغلال بحوثهم والتأثير على أفكارهم. وعلى هذا الأساس أصبحت ظاهرة استعارة المنظومات التربوية الغربية أو الاقتباس منها، ظاهرة غزت النظم التربوية العربية والإسلامية، وأصبح الاعتماد عليها كأنه شرط من شروط التطور الحضاري، والخروج من التخلف.

وينبغي القول، إنه مهما بدت للبعض تلك الإغراءات حقيقة، فلا يمكن للأمة الإسلامية أن تبني بها حضارة وتحقق بها تطورا، لأنها منظومة مستعارة (نبيل، 2001) ؛ وبديهي القول، إن كل عملية تربوية مبنية على صيغة الاستعارة بهذه الكيفية، فهي لا محالة عملية محفوفة بالمزالق ومحاطة بالمخاطر.

إن مكمن الخطر الواضح في مثل هذا الوضع، أنه يجعل التربية في المجتمعات العربية والإسلامية الواقعة تحت ضغط المؤسسات المالية الدولية، فروعا تابعة لمؤسسات التعليم الغربية . فعن طريق ضغط هذه المؤسسات وشروطها ووعودها، يتم تحديد أولويات التطور التربوي بمنظور الحضارة الغربية وقيمها، دون مراعاة الخصوصيات الذاتية للمجتمعات التي تنتمي إليها، ودون اعتبار لحاجاتها وأهدافها المستقبلية. هكذا يصبح انتماء التربية إلى مجتمعاتها انتماء لا شرعيا ولا هوية لها ولا جذور تربطها بأصولها. من هنا يبرز عمق الأزمة التربوية في العالم العربي والإسلامي، وتكبر المأساة التي أصبحت اليوم في أمس الحاجة إلى بذل جهود مضنية وتبني حلولا واقعية، لا تتنكر للهوية العربية الإسلامية وخصوصياتها، ولا ترتمي في أحضان الحضارة الغربية.

لاشك أن ما تشهده المجتمعات العربية والإسلامية من تحديات وتحولات على المستويين المحلي والعالمي، ينذر بوجود أزمة حقيقية لاسيما في المجال التربوي. فمن جهة، هناك أزمة التعامل مع القضايا المعاصرة في ظل التغيرات السياسية والإيديولوجية ؛ ومن جهة ثانية، هناك التغيرات المعرفية والتقنية والمعلوماتية التي أدخلت العالم في طور حضاري جديد.

ولعل من أهم ملامح الأزمة التربوية، هو كيفية التكيف مع المكونات الحضارية «للعولمة» وما تنطوي عليه من تأثيرات على قضايا ذات الارتباط المباشر بالأمة العربية والإسلامية. وإزاء كل هذا، يصبح من الضروري إعادة بناء المنظور التربوي وإصلاح التربية إصلاحا يمكّن من فهم حقيقة التحولات العميقة وتشخيصها (نبيل، 2001) ؛ ومن تم يمكن التكيف معها والتفاعل الإيجابي مع الأدوات الوظيفية لها.

إن ما يشهده العالم من ثورات (معرفية وتكنولوجية ومعلوماتية) تنطوي على تحديات وأخطار تمس عمق كيان الأمة العربية والإسلامية، وتعرضها لما يسمى بـ «صدمة المستقبل أو انهيار الأمل». وتزداد حدة هذه الصدمة والانهيار بسبب ما تعانيه الأمة الإسلامية من عوامل الضعف المتمثلة أساسا في عدم قدرة المنظومة التربية والتعليم على تلبية حاجات المجتمع ومتطلبات العصر، وعدم تمكنها من منافسة المنظومات التربوية العالمية التي أنتجت الحضارة المعاصرة.

لقد أدركت الأمم المتقدمة، أن انبعاثها الحضاري مرتبط بالتربية ذات النوعية الجيدة التي تزوّد أجيالها بالكفاءات والخبرات المتفوقة. ويتأكد لنا ذلك من خلال التقرير المقدم من اللجنة الوطنية المكلفة بدراسة «تحقيق التفوق والسبق في التعليم بالولايات المتحدة». الذي يوضح المخاطر التي تتعرض لها الولايات المتحدة من جراء انخفاض مستوى التعليم بها وضعف حركته نحو الامتياز والتفوق. وترى اللجنة أن التقرير وإن كان موجها إلى المسؤولين عن التعليم، إلا أنه يخاطب الشعب الأمريكي كله. فالمشكلة ليست مجرد قضية تهم المؤسسات التعليمية ؛ بل هي قضية أمة ذات سيادة عالمية، تود أن تأخذ مكانها في عالم شديد التنافس، وليس لديها من أداة لتحقيق ذلك إلا التربية، التي تصوغ مواردها البشرية ؛ فهي التي تحدد بنوعيتها ومستواها مكان الولايات المتحدة وسط هذا العالم الذي تغير ليغدو كله قرية صغيرة، تتفاعل أجزاؤها في سرعة وحدة (تقرير اللجنة الأمريكية، ترجمة، عبد المعطي، 1984) ؛ وأما إذا نظرنا بموضوعية لأوضاع الأمة العربية والإسلامية في الوقت الراهن، وتتبعنا بصورة متسلسلة وبفكر عميق ما تعانيه من أزمات ، وما تتعرض له من هجمات ؛ فإنه يتبين لنا أنه من بين عوامل الأزمات المختلفة والهجمات التي تتلقاها ؛ نابعة من ضعفها الذاتي ؛ أي أن أصل الأزمة في نفسها، فروح الاستكانة والتواكل والاعتماد على الغير ؛ جعل منها سوقا رابحة للآخرين. فنتيجة لضعف مقاومتها الداخلية، قلّ تفاعلها الحضاري الوظيفي والإبداعي، وقلت منافستها للأمم الأخرى، وآل أمرها إلى أعدائها الذين يوهمونها بقوة حضارتهم وصلاحيتها لجميع الأمم، كما يوهمونها بصحة معتقداتهم التي تفوق صحة المعتقدات الأخرى، ويتحججون في ذلك بالمظاهر الحضارية الحالية التي أصبحت بالنسبة إليهم كالشمس تشرق بنورها على جميع الأجناس، أو كالسماء التي تصب بمائها على الأرض لينتفع بها كل الناس . فصارت الأمة العربية والإسلامية في ظل الانبهار لما تنتجه الحضارة الغربية تعيش حالة غيبوبة عقلية، تكاد تكون عامة ومرحلة مرضية خطيرة ، وأصبح كل ما يحيط بها ومستعمل في حياتها يأتيها من أعدائها، حتى أصبحت البلاد العربية والإسلامية أكبر سوق للاستهلاك الحضاري بكل أشكاله الصناعية والتجارية والفكرية (عباسي، 1989) ؛ هكذا قبلت بتعلم فنون الاستهلاك والاقتراض والشراء والاستيراد، بدل تعلم فنون الإنتاج والبيع والتصدير.

إن دخول الأمم في التاريخ وبقائها فيه يتوقف على تربية وتعليم أبنائها، والاعتماد على ذاتها، وليس على الاعتماد على غيرها وتكديس السلع الأجنبية في أسواقها. إن التاريخ لا يرحم الكسالى، وأن بناء الحضارة يتوقف على عقول وسواعد الأمة ذاتها. لقد علمنا القرآن أن التغيير الداخلي شرط لكل إقلاع حضاري فردي كان أم جماعي، نقرأ هذا في قوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ سورة الرعد : 11. إن تغيير النفس، هو الذي يرفع من ذاتية الأمة القابلية للاستعمار، ويدفعها إلى رفض القهر والاحتقار، ويكسبها الشعور بالاعتزاز بالهوية الحضارية وبالحرية. وكما هو معلوم بالضرورة، فإن الحضارة لا تستعار، والحرية لا تعطى، وحق الحياة وإثبات الوجود ليس هدية تمنح أو غنيمة تكتسب أو صدقة يُرجى من ورائها الجزاء من الله ؛ وإنما يتحقق كل هذا بالجد والاجتهاد والعمل الجاد، وتغيير السلوك النفسي.ورحم الله مالك بن نبي، الذي استوعب قول الله السالف الذكر فقال: إنها شرعة السماء غير نفسك تغير التاريخ.

إن تغيير النفس الهادف، لا يتم عشوائيا أو تلقائيا أو باستعارة المناهج التربوية الغربية، وإنما يتم عن طريق المناهج التربوية المشبّعة بالقيم المتأصلة في ذات الأمة النابعة من عقيدتها.

وعليه، فإن ما تعانيه الأمة العربية والإسلامية من مشكلات وصراعات وخلافات، وتخلف وتبعية، لا يعزى إلى العامل السياسي ولا يعزى إلى العامل العسكري ولا يعزى إلى العامل الاقتصادي ؛ بل إن حل المشكلات والقضاء على الأزمات، يتم أساسا بتربية وبتعليم النشء تربية تقوم على العقيدة الصحيحة والإيمان القوي .إن غرس الإيمان بالله في نفوس الأفراد، يتم من خلال المناهج التربوية والتعليمية التي تدرب الأفراد على العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين** ﴾ سورة الأنعام :6.

إن التركيز على صحة العقيدة وإدراجها في المناهج التربوية، يعد من الشروط الذاتية التي بها يتم تغيير الأوضاع الموضوعية البيئية. فلكي يتحقق التغيير في البيئة التي تحيط بنا، يجب أن يتحقق أولا في نفوسنا، وإلا فلا نستطيع إنقاذ أنفسنا ولا إنقاذ الآخرين.

فالأمة لا تحتاج إلى عملية نقل المواد الحضارية والتكنولوجية الجاهزة، ولا تحتاج إلى توافر مئات القناطير من الذهب والفضة أو إلى آلاف الملايير من الدينارات والدولارات، أو إلى ملايين من الرجال والنساء كي تنهض وتتطور.إنها لا تحتاج إلى كل هذا بقدر ما تحتاج إلى تكوين عقل ناهض فعال (الجابري، 1998). وبناء على هذا، فإن المشكلة ليست مشكلة أشخاص ، فعدد أفراد الأمة العربية والإسلامية تجاوز المليار نسمة، ولكنهم غثاء كغثاء السيل. فكثرتهم أصبح غثاء كغثاء السيل، وأصبحت الأمم تتداعى عليهم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، وليست في الأشياء، فكل منتجات العالم تجد طريقها مفتوحة إلى أسواق الدول

العربية والإسلامية. وهي تعكس المقولة القائلة (كل الطرق تؤدي إلى روما) لما كانت خيرات وثروات العالم تأخذ طريقها إلى روما. فالمشكلة في النهاية مشكلة أفكار والصراع، كما هو باد اليوم صراع أفكار .وتلك حقيقة يؤكدها الخطاب القرآني في أكثر من موضع من خلال تمجيده للعقل.

إن أهمية الأفكار في حياة مجتمع معين، تتجلى في صورتين: فهي إما أن تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة وبناء الحضارة، وإما أن تؤثر سلبا وتصبح ظاهرة مرضية تجعل الحياة صعبة والبناء الحضاري معقدا أو مستحيلا، فتحدث حالة التخلف والتقهقر، وتؤدي إلى التبعية والسيطرة الأجنبية.

إذا كانت العلاقات بين الأمم في القرن الماضي، علاقات قامت على القوة، وكان مركز أية أمة من الأمم يقدر بما تملكه من الأرصدة المالية والمصانع المنتجة والأسلحة المدمرة، فإن هذا القرن حدث فيه تطور مذهل أعلى من قيمة الأفكار التي أصبحت في هذا العصر عنصرا هاما في المنافسة بين الأمم التي أدركت أن مجال المنافسة والسبق والتفوق الحضاري، قد انتقل من مجال التجارة بالسلع المادية والمنتجات الزراعية إلى مجال التجارة بالأفكار. وعلى هذا الأساس، أصبحت المعرفة والتعلم والمعلومات والذكاء، هي الخدمات الجديدة للتجارة الدولية الرابحة، وأن قوة الأمم الآن ليست في الدبابة والمدفع والطائرة ؛ بل بالفكرة والإرادة والفعالية الحضارية. غير أن الفعالية الحضارية المطلوبة، لا تتأتى إلا بقدر ما يتوفر لأبناء الأمة من النوعية التربوية الجيدة. إن ضعف المنتوج التربوي الذي تنتجه المنظومات التربوية في البلاد العربية والإسلامية، ظل يرسخ جذور التخلف واتساع دائرة التبعية الخارجية (نبيل، 2001).

إن مشكلة الأمة من الوجهة التربوية، هي في جوهرها مشكلة تكوين الأفكار الفعالة وتوجيهها وتوظيفها، فعلى الرغم من ضعف المنتوج التربوي (نسبيا)، مقارنة بفعالية منتوج النظم التربوية الغربية، فإن القدر النوعي فيه لا يستثمر كما هو مطلوب وحسب ما هو مرغوب. فهناك الملايين من الأيادي الفنية المدربة لا تستغل ولا توظف فعالا، لأن بعض الشروط الداخلية والخارجية لا تسمح لها بإظهار فعاليتها، وهناك الآلاف من العقول المفكرة مكونة ومهيأة قادرة على الابتكار والإبداع وصالحة للاستثمار في كل وقت وفي كل مكان، ولكنها همشت وجمدت في بلدانها أو هجرت ونفيت إلى البلدان الأجنبية لسبب أو لآخر. فشكلت بذلك أخطر فاقد فكري وأكبر تسرب حضاري ضاعف من أزمة الأمة العربية والإسلامية.

إن تنمية الفكر وتفعيل نشاطه، يعد أغلى رأس مال تملكه الأمة لبناء الحضارة. صحيح أن رأس المال المادي والموارد الطبيعية والتجارة الدولية تؤدي دورا أساسيا في النمو والتطور،

ولكن لا أحد منها يفوق في الأهمية عنصر القوى البشرية التي يكونها النظام التربوي. إن هذه القوى تمثل المنتوج التعليمي المتنوع التخصصات والخبرات، الذي يظهر في ألوان معرفية مختلفة تظهر فعاليتها في مستوى تغيير المنظومة الفكرية للأفراد، وقدراتهم الإبداعية والإنتاجية. وليس شرطا أن يظهر في الأسواق التجارية في شكل سلع ومنتجات للحصول على أرباح وفوائد معينة، أو في سوق البورصات المالية في شكل أوراق نقدية لعملات عالمية مختلفة . إن هذه المظاهر ليست من خصائص النظام التربوي، ولكنها من نتائج عائداته الجيدة.

إن فعالية الحضارة العصرية، ارتبطت بالنوعية التربوية الجيدة أكثر مما ارتبطت بالثروات الطبيعية المتوفرة في بلد ما. فإذا كان الفارق بين الأمم يقاس الآن بالفارق الحضاري، فإن مرد ذلك يعود إلى الفارق في النوعية التربوية التي تنتجها النظم التعليمية. ومن هنا تطرح قضية النوعية التربوية في البلاد العربية والإسلامية كمشكلة أساسية لمنافسة الدول الأخرى. إن الأمة التي تريد البقاء لنفسها واحترام الآخرين لها، مطالبة بتربية أبنائها والمحافظة على أصالتها، وأن تعمل على ترسيخ الوعي بهويتها لدى أبنائها في إطار من التنظيم الشامل والنضج الكامل الذي تكون غايته حفظ التوازن بين الجدة والأصالة، وصيانة أساسيات الأمة من التآكل والاندثار في غياهب الفكر الغربي، فالأمة تستحق الاحترام بين الأمم الأخرى طالما حافظت على جذورها، واحترمت أصالتها وهويتها الحضارية الخاصة بها.

وإذا كنا نؤكد على الحرص على هذه الجوانب، فإن ذلك لا يعني أننا ندعو إلى الانغلاق والالتفاف حول الموروث القديم للأمة، والتغني بتاريخ الأمجاد والأجداد ؛ بل ندعو إلى أن يترافق سير الأمة مع استيعاب حركة التغيير الواسعة في كافة الأبعاد والاتجاهات، وفق مقتضيات ودواعي الحاجة إلى التغير والتطور، التي تتطلبها بنيتها الحضارية المادية والمعنوية، وفي أطر بعيدة عن الانصهار والذوبان في الكيانات المضادة لها، والتي تضيع فيها شخصيتها وتفقد قوتها وفعاليتها الحضارية.

إن التأكيد على تأصيل التربية، لا يعني مقاطعة الحاضر والانفصال عنه، والابتعاد عن مجاراة مسيرة التطور في شتى حقول العلم والمعرفة، وإنما يعنى وقف الانبهار والاستسلام لحضارة هي في حقيقتها حضارة الغزو والاستلاب،كما يعني القضاء على مركب النقص ووقف احتقار الذات الذي أصبح مرضا يحتاج إلى تشخيص علاجي دقيق ، وإلى دواء ناجع لا يتعايش مع المرض، وإنما يقضي عليه.

خلاصة :

إذا كان البعض من دعاة العولمة في العصر الحاضر، يدعون إلى إنشاء منظومة قيم عالمية مشتركة شاملة، تتفق عليها الحضارات والأديان كمرجعية ونظام معياري يحددان أنماط العلاقات على أسس سلمية تعاونية ليست عدائية صراعية ؛ فإن الدعوة إلى الشمولية الحضارية بكل أبعادها الإنسانية، ظهرت ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي أرسله الله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا. وبشمولية الرسالة النبوية انتقلت الحضارة من الحيز المكاني المحدود إلى الحيز الواسع، ومن الكيان الإنساني القومي الضيق إلى الكيان الإنساني الشامل، وأصبحت وظيفة الحضارة وظيفة كلية يشترك فيها البشر جميعا، لا فرق بين الآسيوي والإفريقي كمكان جغرافي، ولا فرق بين الأبيض والأسود كلون بشري، ولا فرق بين عربي وأعجمي كانتماء عرقي. فمعيار التفاضل والاختلاف بين جميع الأجناس هو التقوى ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ سورة : الحجرات : 13. بهذا المبدأ الرباني المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، والمبلغ منه إلى البشرية كافة، انصهر الناس جميعا في إطار عقائدي واحد. وهو ما يرمز إلى عالمية الحضارة الإسلامية التي تذوب فيها كل الفوارق العنصرية، وتلغى منها كل الحدود الجغرافية، وتتكامل فيها كل الجهود البشرية، وتوظف فيها كل الطاقات والخبرات الإنسانية حبشية وفارسية وحجازية وهندية وصينية.

وبهذا المبدأ الرباني لشمول الحضاري، تحولت وظيفة التربية في إطار المبدأ الإسلامي من وظيفة إعداد الإنسان القومي (كالإنسان الهندي والصيني واليوناني والروماني والعربي والفارسي...) إلى إعداد الإنسان المسلم ذو الوظيفة الربانية، وذو المهمة الحضارية الإنسانية العالمية، التي تقوم على العدل والاعتدال والشمول والتكامل والتوازن (فرحان، 1984)، لا تفصل بين الجانب المادي والروحي في الإنسان، ولا بين الحق والحقيقة ولا بين المعرفة والفضيلة، وهدفها تحقيق سعادة الدارين (الدنيا والآخرة).

ولما كان هدف التربية الإسلامية، تحقيق سعادة الدارين للإنسان، فقد تم التركيز أولا على الخبرة العملية التي بها ترقى الفعالية المادية كهدف من أهداف تعلم العلوم والفنون والتقنيات، لتصل بها الخبرة والمهارة إلى أرقى الدرجات ؛ وثانيا على الخبرة النفسية لتحقيق القناعة الإيمانية والمناعة الخلقية والاجتماعية، ثم تأتي فنون الاستهلاك والاقتراض والشراء والاستيراد الوعي، باعتبارها تمثل إدراك الأفضل المنشود لتحديد أبعاد الفعالية الحضارية وفق الشروط المعيارية والواقعية.

ولتحقيق هذا المبدأ الحضاري، فإن الأمة الإسلامية مطالبة بالعودة إلى ذاتها واكتشاف حقيقتها، وعليها أن تدرك حاجتها إلى النوعية التربوية المطلوبة لتحقيق الفعالية الحضارية المنشودة.

وعلى هذا الأساس، تصبح أولى متطلبات الإصلاح التربوي وتجديده العودة إلى الذات ووعيها.ذلك أن وعي الذات يعد نقطة بداية لكل عمل تربوي فعال، وتوظيف ما جاء في القرآن والسنة من مزايا وخصائص التفوق الحضاري في الدنيا ونيل رضا الله والفوز بالجنة في الآخرة.

إن ما يجدر التركيز عليه والتذكير به والتنبيه إليه، هو أن الأمة لا تستطيع أن تقوم بانبعاث حضاري بالأطر الفكرية الغربية، والمناهج التربوية الأجنبية بكل مدارسها، ولا يصلح حاضرها ومستقبلها إلا بما صلح به ماضيها،طبقا لقول «مالك بن أنس» (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

إن الانبعاث الحضاري للأمة الإسلامية، لا يكون إلا بتكوين نموذج إنساني يحمل أدق مفاهيمه الإنسانية وأكمل مواصفاته الوظيفية وأبرز قيمه النفسية والاجتماعية، طبقا لما جاء في القرآن والسنة النبوية، يعيد للأمة الإسلامية الصفة الخيرية لها ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ سورة آل عمران : 110.

إن تحقيق هذا النموذج الإنساني، يتطلب مستوى عال من الوعي الحضاري الفعال، يسمح للأمة أن تعي ذاتها وتدرك حقيقتها وتضطلع بوظيفتها الحضارية. إن النوعية التربوية المطلوبة لتحقيق الفعالية الحضارية، تقوم على أسس وعوامل مركبة ومعقدة .

فمن الناحية التركيبية، فهي عملية نفسية وعقلية وعملية في آن واحد، وكل عناصرها مرتبطة ارتباطا وظيفيا متكاملا، يظهر في شكل قدرات ومهارات تتفاعل مع المحيط البيئي الطبيعي تفاعلا إيجابيا. فالدافعية للإنتاج الحضاري، تكمن أكثر في الأعماق النفسية للإنسان المسلم ابتداء من الفطرة ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ سورة الروم : 30. فحسب مفهوم الإسلام للفطرة، فإن العملية التربوية عملية نفسية تستلزم تركيز الطاقات النفسية تركيزا يسمح برفع مستوى الجدية والفعالية إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه النفس من العمل والاستقامة .

إن الاهتمام بتربية النشء تربية صحيحة، لم يعد مجرد مجموعة من الشروط والعمليات التي تتحكم في مصائر الأمة ؛ بل أصبحت إضافة إلى ذلك تمثل مجموعة العوامل التي يجب على الأمة أن تعيها وتدرك أسباب تفاعلها وتكاملها لإحياء تاريخها وعهود ازدهارها الماضية ، ولتحقق بها آمالها وطموحاتها المستقبلية التي تطلع إليها عن طريق النموذج الحضاري الإسلامي المتأصل ؛ ينمو كالشجرة أصله ثابت يتغذى من أصالة الأمة وحضارتها،وفروعه متنامية في الفضاء المعرفي المتنوع.

المراجـــع

1- فريد هالدالي. الكونية الجذرية لا العولمة المترددة. ترجمة. بيروت. 2002 ص. 196.

2- نفس المرجع. ص. 108.

3- هانس. ب. مارتين، هارالد شومان. فخ العولمة. ترجمةعباس عدنان علي. الكويت. عالم المعرفة. العدد. 238. 1998.

4- صامويل هانتنجتون.. صدام الحضارات. ترجمة. مجموعة من الباحثين. بيروت. مركز الدراسات الاستراتيجية. 1959. ص. 21.

5- عبد الرحمن الخليفي. عن العلاقة بين العولمة والتربية والتعليم. (مجلة الوحدة الإسلامية). لبنان. العدد 13. فبراير. 2003.

6- جعفر ادريس. العولمة وصراع الحضارات. مجلة البيان. لبنان. العدد. 23. 2003.

7- مالك بن نبي. شرط النهضة. ترجمة. عبد الصبور شاهين. القاهرة. دار الفكر. 1969.

8- علي أحمد مذكور. نظريات المناهج العامة. عمان. دار الفرقان. 1986.

9- مدني عباسي مشكلات تربوية في البلاد الإسلامية. مكة المكرمة. مكتبة المنار. 1989.

10- الكسيس كارال. الإنسان ذلك المجهول. تعريب. شفيق أسعد فريد. بيروت. مكتبة المعارف. 1986.

11- شيفتسر. فلسفة الحضارة. ترجمة. عبد الرحمن بدوي. بيروت. دار العلم للملايين.

12- باولو فيراري. تعليم المقهورين. ترجمة يوسف نور عوض. بيروت. دار القلم. 1980.

13- ابن خلدون. المقدمة. بيروت. دار الرائد العربي. ط. 2. 1982.

14- مدني عباس مشكلات تربوية في البلاد الإسلامية. مرجع سابق.

15- نبيل علي. الثقافة العربية وعصر المعلومات. الكويت. عالم المعرفة. العدد. 265. 2001.

17- تقرير اللجنة الأمريكية. أمة معرضة للخطر. ترجمة. يوسف عبد المعطي. الرياض. مكتب التربية العربية لدول الخليج. 1984.

18- عباسي مدني. النوعية التربوية في البلاد الإسلامية. الرياض. مكتب التربية العربي لدول الخليج. 1989.

19- محمد عابد الجابري. تكوين العقل العربي. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية. ط. 7. 1998.

20- تبيل علي. مرجع سابق.

21- إسحاق أحمد فرحان وآخرون. المنهاج التربوي بين الأصالة والمعاصرة. عمان. دار الفرقان. 1984.